الفصل الأول

الإنسان والتفكير

● **الانسان :**

كتب الكثير الكثير عن الانسان ٠ ، لكننا ـ فى هذا المقام ـ ننظر اليه من زاوية مختلفة ٠٠ هى زاوية التكريم ، وفى زاوية التكريم نقدم ـ باذن الله ـ ما هو جديد !

أما تكريم الانسان ٠٠٠

فهو أولا لانسانيته ٠٠ ذلك نص القرآن :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (١) ٠

فلو خير الانسان بين التضحية بانسان أو بحيوان ، فانه بلا شك يقدم الانسان على الحيوان بمعنى انه يفتدى الاول بالثانى مهما كان دينه أو جنسه أو ميله ٠

وهو مكرم بعد ذلك لعلمه وفكره ، ذلك ما صرح به القرآن حين حكى قصة خلق آدم :

---

(١) الاسراء : ٧٠

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون » (٢) ٠

ثم أشار الى سبب التكريم :

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صـــادقين ٠ قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم ٠ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقـل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (٣) ٠

ورتب على ذلك مباشرة سجود الملائكة لآدم :

« واذ قلنـا للملائكـة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكـافرين » (٤) ٠٠ أى تكريم أعظم من هذا التكريم ؟ !

وفى أول سورة ربط العـلم بالخـلق بـل قدمـه على الخلق :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ٠ خلق الانسان من علق ٠ اقرأ وربك الأكرم ٠ الذى علم بالقلم ٠ علم الانسان ما لم يعلم » (٥) ٠

وفى سورة الرحمن كذلك قدم العلم على الخلق ، فضلا عن أنه كرر العلم مرتين آ ٠

---

(٢) البقرة : ٣٠
(٣) البقرة : ٣١ ـ ٣٣
(٤) البقرة : ٣٤
(٥) العلق : ١ ـ ٥

« **الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان** » (٦) •

ويزخر القرآن بآيات العلم وتكريمه حتى أن بعض من أحصوه قالوا انه ذكر أكثر من ثمانمائة مرة ••

ويكفى فى هذا المجال اشارات ثلاث :

أولها : جعل الذين أوتوا العلم ثالث ثلاثة بعد الله وملائكته فى الشهادة بتوحيد الله :

« **شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم** » (٧) •

ثانيهما : ربط التقوى بالعلم :

« **انما يخشى الله من عباده العلماء** » (٨) •

« **واتقوا الله ، ويعلمكم الله** » (٩) •

ثالثهما : عطف الراسخين فى العلم على لفظ الجلالة فى العلم بالتأويل — عند من أجازوا عدم الوقوف على لفظ الجلالة :

« **وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم** » (١٠) •

وتزخر أحاديث رسول الله ﷺ بالكثير ، ويكفينا فى مجال

---

(٦) الرحمن : ١ — ٤
(٧) آل عمران : ١٨
(٨) فاطر : ٢٨
(٩) البقرة : ٢٨٢
(١٠) آل عمران : ٧

الحديث عن الفكر الاشارة الى تكريم العقل ، فى قول رسول الله ﷺ :

« ما خلق الله عز وجل أكرم عليه من العقل » (١١) ٠

وهو مكرم فوق ذلك لتقواه وايمانه :

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٢) ٠

« مر رسول الله ﷺ بالكعبة فقال لها : ما أعظمك وأعظم حرمتك ! والله لحرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمة بيته المحرم » ٠

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » ٠

وهكذا ترتفع التقوى بالمسلم الى أكرم درجة ٠٠ فى الدنيا والآخرة ، فاذا اجتمع مع العلم التقوى ، فقد اجتمعت له الحسنيان !

* * *

● التفكير :

التفكير ٠٠ ثمرة ٠٠ ثمرة غالية ٠٠

أين أصلها ٠٠ فى العقل ٠ فى القلب ٠ فى النفس ٠ فى الفؤاد ٠ فى الروح ٠ فى اللب ؟؟

والآخرة ، فاذا اجتمع مع العلم التقوى ، فقد اجتمعت له الحسنيان !

---

(١١) رواه الترمزى ٠ (١٢) الحجرات : ١٣ ٠

(١٣) ذهب الامام الغزالى ـ وتبعة آخرون ـ الى التفرقة فى التعريف بين القلب،والنفس ، والروح ، والعقل على النحو التالى : قال فى تعريف القلب : له معنيان : أحدهما اللحم الصنوبرى ، وهو منبع الروح ومعدنه ، والثانى لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب =

ونحن تهمنا النتيجة والثمرة .. أما ما عـدا ذلك فلا نحسب للخوض فيه جدوى كبيرة ، ونحسب أن تلك أسماء لمسمى واحد ..

كما كان الهزبر والليث والضرغام والغضنفر ، والجندر ، والفهد أسماء لمسمى واحد هو ملك الحيوانات : الاسد !

=

الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان • وقال فى تعريف الروح : لها معنيان : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى ، والثانى اللطيفة العالمة المدركة من الانسان • وقال فى تعريف النفس : لها معنيان : أحدهما المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الانسان ، والثانى اللطيفة العالمة المدركة من الانسان فان سكنت تحت الأمـر وزايلتهـا الشـهوات والاضطرابات سميت المطمئنة •

وان لم تسكن ودافعت سميت اللـوامة . وان أذعنت سميت الأمارة بالسوء •

وقال فى تعريف العقل : له معنيان : العلم بحقائق الامور ، أو اللطيفة العالمة المدركة من الانسان • واذا نظرنا الى المعنى الثانى نجده مشتركا فى الاصطلاحات الاربعة ، أما الاختلاف حـول الكنه فلا يهمنا لأننا نحسبه مما احتفظ الله سبحانه بسره : « **ويسألونك عن الروح ، قل الروح من امر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا** » (الاسراء : ٨٥) •

(احيـاء عـلوم الدين ـ المحـقق ـ جـ ٨ ص ٥ ـ ٨ ، وراجع الامام ابن تيمية ـ الفتاوى ـ جـ ٩ ـ ١٣٩٨ ـ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ـ ٢٩٣ ، ٣٠٧

ولئن وجدت بعض الفروق « الخفيفة » فى تلك الاطلاقات ، فهى لا تستحق التفرقة فى المسمى !

ونحسب الفروق راجعة الى اختلاف لون الثمرة أو طعمها ..

فان كانت الثمرة فكرا .. رجح ذكر العقل والتعقل ، وان صحت نسبته كذلك الى القلب أو الفؤاد أو الروح .. « **انما يتذكر أولوا الألباب** » ، (١٤) « **ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** » (١٥) .

وان كانت الثمرة عاطفة .. رجح ذكر القلب ، وان أمكن ان ينسب الى غيره من الاسماء .

وان كانت الثمرة شهوة أو غريزة أو تهذيبا لها .. ذكرت النفس، وذكرت مراتبها .. أمارة بالسوء ، أو لوامة ، أو مطمئنة !

وان كانت الثمرة أشواقا وسموا .. ذكرت الروح .. وان صح أن تنسب الى غيرها من الاسماء ... وهكذا .

ويخلط البعض بين العقل وثمرته أو نتأجه ، فيسمى القدرة على استيعاب البدهيات عقلا.كادراك أن الاثنين لاتساوى واحدا ، وأن الواحد والاثنان لايتساويان ، وأن الشخص لا يوجد فى مكانين فى وقت واحد .

ويسمى القدرة على استيعاب العلوم النظرية والتجريبية عقلا.

---

(١٤) الرعد : ١٩ (١٥) سورة ق : ٣٧

ويسمى القدرة على ادراك العلل والحكم أو بعباره أخرى الحكمة عقلا .

ويسمى القدرة على تبصر العواقب وتوقع النتائج عقلا .

ويعيب على غيره انه لم يدرك ذلك (١٦) .

ونرى أن تلك ثمرات العقل فى مدارجه أو مراتبه حين ينمو مع الانسان أو ينمو بعد الانسان ، ونقصد بالاولى نموه معه من فترة عدم التمييز ، الى فترة التمييز ، الى الرشد ، الى الحكمة .

ونعلم أن عوامل أخرى خارجية تتفاعل لبلوغ هذه النتيجة ـ والله أعلم ـ .

ويذكر بعض آخر أنواعا من العقول : فعقل وازع .. يخاطبه رب العالمين فى كتابه ليستجيش فيه الاستجابة والتسليم (١٧) .

وعقل مدرك يخاطبه رب العالمين ليستجيش فيه الفهم والوعى (١٨) .

وعقل يندبه الى الفكر والرأى ويعبر عنه بالنظر والبصر والتدبر والاعتبار (١٩) .

---

(١٦) الامام الغزالى المرجع السابق .

(١٧) راجع الآيات (البقرة : ١٦٤ ، المؤمنون : ٨٠ ، الروم : ٢٥ ـ ٢٨) .

(١٨) راجع الآيات (آل عمران :٧، الزمر :١٨، يوسف :١١١).

(١٩) راجع الآيات (البقرة : ٢١٩ ، آل عمران : ١٩١ ، الانعام : ٥٠) .

وأخيرا عقل يمن عليه بالحكمة والرشد « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** » (٢٠) .

ونحسب أن الغـــزالى ســـبق الى ذلك حين قال : للعقـــول أربعـــة معان :

الأول : الوصف الذى يفارق فيه الانسان سائر البهائم .

الثانى : العلوم التى تخرج الى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات .

الثالث : علوم تستفاد من التجـــارب ، فيقـــال لمن حنكته التجارب عاقل .

الرابع : أن تنتهى قوة الغريزة الى أن يعرف عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها (٢١) .

---

(٢٠) الآية من سورة البقرة : ٢٦٩ ، وراجع « التفكير فريضة اسلامية » للعقاد . ص ٩ — ١٩ ، منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا .

(٢١) الامام الغزالى جـ ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ — المرجع السابق . ويشير الى قول على رضى الله عنه :

رأيت العقل عقلين ... فمطبـوع ومســـموع
ولا ينفـــع مسموع ... اذا لم يك مطبـــوع
كما لا تنفع الشمس ... وضـــوء العين ممنوع !

ويقول الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة — ويقول : من لم يكن كلامه حكمه فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكر فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو — المرجع السابق .

ونرى : أن الأمر ليس متعلقا بعقول عدة ، ولا بمعان عدة ، ولكنه متعلق بمدارج العقول ومراتبها :

فأول ما يبدأ العقل مفارقا فيه الانسان سائر البهائم ومتميزا به عنها .

ثم يبلغ التمييز فيرى جواز الجائزات واستحالة المستحيلات ويدرك البدهيات .

ثم تحنكه التجارب .

ثم يبلغ به الحكمة . .«**ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولوا الألباب**» (٢٢) والله أعلم . .

* * *

والثقافة ثمرة للفكر فى المجال النظرى .

والمدنية ثمرة للفكر فى المجال التجريبى

والحضارة ثمرة للفكر فى المجالين النظرى والتجريبى (٢٣) .

---

(٢٢) فى استفسار من أحد كبار أساتذة جراحة المخ (الأستاذ الدكتور حسين نبيل هاشم — جامعة الاسكندرية) أفاد أن وظائف المخ هى: ١ — المستوى الاول:الوظائف الحيوية الأساسية للجسم، ٢ — المستوى الثانى : الوظائف الحركية والانفعالية (الحيوانية) ٣ — العقل (قمة المخ) الوظائف العليا من التفكير والتدبر ، وكبح وتنظيم الوظائف الحيوانية ، وفى رأيه أن القلب محل أنوار الايمان أو ظلمة الكفر أو خليط النفاق،وأن النفس محل العواطف والأهواء — والله أعلم .

(٢٣) راجع د. أحمد شلبى — موسوعة النظم والحضارة الاسلامية .

من هنا كانت أهمية الفكر .. بعد تكريم الله له ، وتكريم الانسان من أجله ، وهذا ما دفع أحد أئمة الدعوة المعاصرين الى جعل الفهم أول ما يبايع عليه ، وحـــاول أن يلخصه فى أصـــول عشرين (٢٤) وهو ما قد نزيده تفصيلا عند الحديث عن مواصفات الفكر الاسلامى الأصيل .. والله المستعان .

* * *

(٢٤) الفكر الاسلامى منابعه وآثاره ص ١٩ ، ٢٠ .

obeikandl.com